أهمية وامكانية الحوار الثقافي بين الثقافات التباينة

بقلم الأستاذ :خالد ابو عصبة
محاضر في كلية دافيد يلين
باحث في معهد بروكديل

في ظل التطورات العلمية والتكنولوجية في عالمنا المعاصر يبرز بشكل واضح التباين الثقافي بين المجتمعات المختلفة، كما ويبرز مدى تأثير وتأثر هذا التباين على هذه التطورات، وذلك وفقاً للتوجهات والاعتبارات الأيدلوجية (المعتقدات) التي تميز مسار كل مجتمع مقارنة مع المجتمع المغاير، وما يلحق ويواكب ذلك من خصوصيات اجتماعية واقتصادية وسياسية. الأمر الذي يدعو ويحفز ليس فقط إلى التمعن في الشكل والمضمون إنما كذلك في أبعاد مثل هذا التباين الثقافي خاصة بما يتعلق في العلاقات المتبادلة فيما بين الثقافات المختلفة. ان مثل هذا التمعن في العلاقات المتبادلة من شأنه ان يحدد ويبرز الغبن اللاحق بتلك بالثقافات غير السائدة على مستوى المجتمع العالمي المعاصر، والذي يتميز فيما يتميز بانعدام أقل حد من المساواة بين بالثقافات ويعود ذلك إلى الهيمنة الثقافة لتلك الثقافة السائدة خاصة في ظل غياب التعددية الثقافية، ونقصد بالتعددية الثقافية تلك التي تمنح كل ثقافة اياً كانت شرعية لوجودها وطرح قيمها ومعتقداتها بدون الحكم عليها على أنها ثقافة "عليا" أو "دنيا" مقارنة مع الثقافة الأخرى، مع الأخذ بعين الاعتبار المحافظة على الاطار العام المتمثل بالخطوط الحمراء التي يحددها كل مجتمع لنفسه.

كما ان مثل هذا التمعن لا يقتصر على النظر السطحي فقط بغرض التعرف على هذا التباين والوقوف على والعلاقات المتبادلة بين الثقافات، بل يأخذ بعداً فعالاً بحيث يمكن تسميته لغرض البحث هنا بالحوار. يأتي المطلب في الحوار بين الثقافات خاصة في ظل ما يسمى بالقرية الصغيرة Global Village التي تحدثت عنها المدرسة الامريكية في سنوات ال-٩٠، وعلى خلفية وجهات النظر في السنوات الاخيرة حيث استمر الحديث عن "القرية الصغيرة" ولكن اضافة لهذه التسمية اعتبرت هذه "القرية" مجموعة من الاحياء الثقافية المختلفة، الامر الذي يشير الى ضرورة الاخذ بعين الاعتبار التباين وعدم التجانس بين الثقافات من منظور المساواة بينها.

تجدر الاشارة الى انه مع التقدم والتطور العلمي والتكنولوجي والنهضة العلميه العارمة في العالم الغربي، والتي بدأت في اواخر القرن التاسع عشر حتى وصلت في منتصف القرن العشرين الى اكتشاف واستخدام القنبله الذرية. الا انه واكب هذا الاكتشاف والاستخدام ظهور الحركات الوطنية والقومية للشعوب المختلفة على مختلف انتماءاتها بغرض المطالبه بالحريه السياسية، مع امل هذه الشعوب بالوصول الى الاستقلالية والحرية في ادارة شؤونها الذاتية وبناء كيانها القومي و الثقافي رافضة الاستعمار بأشكاله المتعددة. الا ان هذا الامل كان له ان اصطدم بواقع وشكل جديد من أشكال الاستعمار، الذي تكّون نتيجة الاحداث المتواكبة مروراً بالحربين العالميتين ومن بعدهما الحرب الباردة وما جاء من عشرات النزاعات الاقليمية في جميع ارجاء العالم (انظر، Levi-Faur، ١٩٩٧) حول النظريات الاقتصادية التي سادت اثناء الحرب الباردة

وما لها من تأثير على المسار الاستعماري الذي أخذ بعداً مغايراً لما كان عليه سابقاً. لقد كانت محصلة الامل للحرية في احسن الحالات الاستقلالية النسبية والحرية الجزئية الهشةمن الناحية السياسية، لأن الجانب التطبيقي للحرية على ارض الواقع امتاز بالزيف حيناً وفي الفشل حيناً أخر وذلك بسبب عدم القدرة في التوصل الى الاستقلالية الاقتصادية التامة والتي تعتبر شرطاً اساسياً لأي استقلالية سياسية كانت. الامر الذي ادى بدوره الى فقدان المعنى الشمولي للحرية الجماعية والفردية. يكفي ما نراه من "تحرر" لدول العالم الثالث في افريقيا والدول العربية في اسيا لنرى بأن هذا التحرر كان جزئياً فاقداً للمعنى الشمولي المقصود، حيث كان هذا "التحرر" منوطاً بالتبعية بجميع اشكالها، عوضاً عن الفوارق التحصيلية بين المجتمع الغربي والعالم الثالث الاخذه بالازدياد (بنسيون، ١٩٨٤، Cohen، ١٩٨٢). ليس هذا فحسب، فالامر لم يقتصر فقط على عدم الاستقلالية من الناحية السياسية والاقتصادية، بل وتبعت ذلك ايضاً بطبيعة الحال الهيمنة والسيادة في المجال الثقافي. فالهيمنة لا تكتمل إلا إذا كانت كذلك شمولية. عند الحديث عن المجال الثقافي فهو يدور حول رموز الهوية الجماعية المتمثلة باللغة والذاكرة الجماعية المؤدية الى صقل الخصوصية لهذه الهوية الجماعية، وما لهذا البعد من تأثير للمدى البعيد على مجرد شرعية وجود ثقافات تعتبر "متخلفة" من وجهة نظر اصحاب الثقافة المهيمنة. يظهر ذلك جلياً في تعامل الثقافة السائدة نحو المهاجرين من دول العالم الثالث الى هذه الدول الغربية (انظر، Loshitzky، ١٩٩٦). كما ويظهر ذلك من نتائج بحث قاموا به سكيف-شيفتر واخرون (١٩٩٨) حول قيمة التسامح لدى المجموعة السائدة اتجاه المجموعات المغايرة لها اجتماعياً وثقافياً. ومن الجدير بالذكر انه في خضم هذا الواقع الجديد من الهيمنة والسيادة وخاصة في سنوات ال ٦٠ وال ٧٠ من هذا القرن، جاءت المطالبة والالحاح من قبل اصحاب وجهات النظر الانسانية الاخذ بعين الاعتبار الاقليات القومية والثقافية في بلدان متعددة الثقافات والقوميات من حيث واقعها وليس من حيث نهجها. فكان التجاوب الجزئي مع هذه المطالبة والالحاح وذلك نتيجة ان اخذت هذه الاقليات تلعب دوراً حاسما" في اللعبة السياسية الداخلية في مثل هذه البلدان. لذا نراها أخذت بعين الاعتبار بغرض اساكتها من خلال ارضائها بشتى الوسائل والاساليب من خلال تبني المجتمع المعاصر الغربي للنظرية الاجتماعية الوظائفية والنظريات الادارية التي كان لها الاثر الكبير على الناحية الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية، كما وعملت على تبني نظريات في العلوم السياسية مثل تلك التي اعتمدت على استيعاب القيادات في مراكز قيادية ومنحها الشرعية في حراكها الاجتماعي الجزئي الخاص بها وليس للثقافة أو للقومية على أساس جماعي (colection). الا ان الأخذ بعين الاعتبار الاقليات القومية والثقافية بواسطة الآليات التي ذكرت لم تؤد بطبيعة الحال الى الحوار الفعلي بين الثقافات المختلفة المعتمد على اساس التكافؤ بينها. ولأن امر الحوار مهم ومطلوب وضروري بالذات للثقافة غير السائدة حيث كانت هي السباقة في طلب الحوار، لم تكن هناك اذان صاغية لهذا المطلب من الطرف الأخر، ومع ذلك استمر أصحاب الثقافة غير السائدة في المطالبة بذلك، نظراً لاهمية هذا الحوار من طرفهم. فعلى سبيل المثال لا الحصر، تظهر الضرورة في طرح الحوار جلياً في الرؤية السلبية لدى العالم الغربي للثقافة والحضارة العربية الاسلامية. وذلك من خلال تقزيم مكنتها بين الثقافات والحضارات العالمية وسلب حقها في انكار مدى وحجم مساهمتها التاريخية للثقافية والحضارة الانسانية عبر التاريخ الانساني، فالحضارة العربية والاسلامية غنية عن ذكر مساهمتها في ذلك، ولا أراني بحاجة لذكر هذه المساهمة. ولن تستطيع الثقافة الغربية انكار هذه المساهمة او حذفها (يكفي بأن اقتبس القول المأثور لنيوتن، حيث قال: لقد استطعت أن أرى بعيداً لاني استطعت الوقوف على أكتاف العمالقة).

اذاً، بواسطة الحوار مع الآخر يمكن الوقوف على عناصر الثقافة والحضارة في الماضي وتثبيت المكانة في الحاضر، والمساهمة للثقافة والحضارة الانسانية في المستقبل. لهذا الامر اهمية كبرى لدى جميع الحضارات، ولكنه ذو اهمية بالغة

جداً للعالم العربي والاسلامي بغرض طرح نفسه حاضرا "ومستقبلا" على خريطة ما يسمى "بالعالم الجديد" وما يتبع ذلك من الريادة العالمية في كافة المجالات وخاصة في عصر حداثي تقوده الفلسفة المادية الميكانيكية مستخدمة بذلك العلوم التكنولوجية المختلفة (الموجه الثالثة). الا اننا نرى ان مثل هذا الحوار غير معمول به بما فيه الكفاية ويأخذ احياناً طابع الخطابة من طرف واحد نحو الطرف الاخر، فنرى وسائل الاعلام الغربية على مختلف اشكالها وتطور اساليبها بالاضافة الى قوة انتشارها، وكذلك المؤرخون والسياسيون وحتى الباحثون في العلوم الاجتماعية والسلوكية قد اساؤا وما زالوا الى الاسلام والعروبة، الامر الذي يقودنا الى طرح الفكرة والرأي بأنه لا بد للثقافة العربية من اجراء الحوار مع العالم الخارجي لها وعدم انتظار فرج العالم الغربي للثقافة العربية. نقصد وبشكل معتمد وصريح بأن تبادر الثقافه العربية في طرح الحوار من طرفها. عندما نطرح فكرة الحوار فاننا نطرحها على اساس التعددية الثقافية نهجاً ومبناً وتعاملاً (انظر، عيدان، ١٩٩٠). كما انه من الخطأ بمكان ان تنغلق الثقافة والحضارة العربية على نفسها وان تعمل بقصد على عدم الانكشاف للثقافات والحضارات المختلفة عنها، لان الانغلاق وعدم الانكشاف لن يوصلها الى وضع تأثير متبادل (syncratizm) بينها وبين الثقافات الاخرى. ولأن الازاحة الذاتية (الانغلاق) تؤدي حتماً من جهة الى ترسيخ الافكار المسبقة التي تحمل المضمون والتصور السلبي لدى الثقافات والحضارات الانسانية الاخرى للثقافة والحضارة العربية والاسلامية، ومن الجهة الثانية الانغلاق يؤدي الى عدم اكتساب الايجابيات التي قد تكون موجودة في الثقافات المغايرة، ولا بد بانها موجودة. يجدر التنويه بأننا عندما نتحدث عن الانكشاف فهذا لايعني بأي حال من الاحوال بعدم التمسك بالخصوصية الثقافية التي تتميز بالقيم والمبادىء الخاصة الموجهة للمعايير السلوكية. انما تعتمد المحاورة في امور قد نلتقي بها، حتى ولو بقي كل على قيمه ومبادئه ومعتقداته. قد يقول قائل على انه بادىء ذي بدء هنالك حاجة لتحديد اطار الحوار، فمثلا" ان نحدد التعريف والمصطلح (الاطار) الذي نريد التحاور بصدده وذلك منعاً للأنزلاق في امور تكون بمثابة اسس لا حوار فيها، مثلا: في امور متعلقة بالعقيدة الاسلامية، فحسب هذه العقيدة "الدين عند الله الاسلام" وما كان قبل الاسلام ما هو الا شرائع مرحلية، اذاً في مثل هذه الحالة لا يقبل صاحب العقيدة الاسلامية بالندية في الحوار، لأنه اذا قبل ذلك فمعنى ذلك انه تخلى عن العقيدة. لذا علينا ان نعرف أي حوار نقصد. الا ان مثل هذا المثل الذي جئنا به يجب ان يؤخذ بالحسبان منعا" من المزالق، ويأتي ذلك من خلال الافتخار بما عندنا من دين ولغة وقيم ومبادىء وأدب واخلاقيات، في مثل هذه الحالة يمكن التوجه للحوار بدون ان تكون هنالك مخاوف انزلاقية.

نطرح الحاجة الى الحوار لأن الخطر في الانغلاق داخل الثقافة ذاتها بدون القيام بحوار مستمر ودائم مع الثقافات الاخرى في واقع الثورة المعلوماتية يؤدي بالضرورة الى التهميش الدولي ليس فقط في المجالات الملموسة مثل المجال السياسي والاقتصادي، وانما نقصد بذلك التهميش الدولي للثقافة والحضارة العربية والاسلامية التي لا تقل اهمية للمدى القريب والبعيد من تلك المجالات الملموسة، كما هو حاصل وكما هو واقع الثقافة والحضارة العربية والاسلامية في عصرنا هذا. فاذا كانت الثورة المعلوماتية والتطورات العلمية والتكنولوجية واقعاً وهي كذلك، وتصل الى ما خلف الحدود الجغرافية التي انهارت امام هذه الثورة المعلوماتية (Newman &Paazi، ١٩٩٨)، فان الانغلاق في مثل هذه الحالة يكون مستحيلاً بل ويتيح الفرصة بأن تستمر سيطرة وسيادة الثقافة السائدة الغربية في ظل هذا الواقع. اذاً، لا بد للثقافة العربية من البحث عن آليات تعمل بالدرجة الاولى على ترسيخ ثقافتها داخل العالم العربي اولاً، ومن ثم البحث عن آليات الحوار مع الآخر وذلك من خلال استخدام واستيعاب الثورة المعلوماتية في عالمنا المعاصر.

اذاً، لا بد من الحوار لتوضيح الصورة الحقيقية في مركبات عدة للثقافة العربية والاسلامية وفي معضلات ومواضيع،

مثل: مكانة المرأة والديمقراطية وحقوق الانساني كما يطرحها الاسلام. كما انه لا بد من الحوار لصالح الاطراف المختلفة، لأن البحث المشترك بين الثقافات المتباينة عقائديا" يوحي بالتفائل ويؤدي الى مواجهة الازمات الانسانية المعاصرة. فقد تكون مسهمة الثقافة الغربية في المجال العلمي والتكنولوجي، وقد تكون مساهمة الثقافة العربية والحضارة الاسلامية في حل قضايا وأزمات انسانية يواجها عصر ما بعد الحداثة الذي يغلب علية التطور العلمي ويتجاهل بشكل او باخر العدل الاجتماعي والفوارق الاخذ بالازدياد بين المجتمعات والافراد.

من الطبيعي والبديهي ان هنالك اعداء لمثل هذا الحوار بين العرب والغرب وغيرها من الثقافات العالمية. ويأتي مثل هذا العداء من منطلقين: الاول موضوعي (اذا صح التعبير بأن هناك عداءً موضوعياً، فما الموضوعية الا قيمة نسبية) والثاني مقصود. اما العداء "الموضوعي" مفاده قيام الباحثين المستشرقين منهم وغير المستشرقين (احيانا) من ابناء الثقافة العربية والاسلامية الدارسين في دول الثقافة الغربية او الراغبين في تقليد الثقافة الغربية) بأستغلال واستخدام النظريات الاجتماعية والنفسية والانتربولوجية العلمية المطروحة بغاية تقييم الثقافات والحضارات على سلم وهمي من السلوكيات اذا كانت فردية او جماعية، وأعطاء تفسيرات لظواهر معينة حسب معايير وقيم غربية داعمة للنظرية. بل ويمكن القول بأن النظرية اياها بنيت اصلا" وفق معايير وقيم بعيدة كل البعد عن معايير وقيم الثقافة الخاضعة والمستهدفة في التقييم. اما العداء المقصود، يكون منبعه ومردة في غالب الاحيان الكسب السياسي في نطاق العلاقات الدولية، مثل ان يحمل الشخص المقيم وجهة نظر سياسية أو عنصرية تدفعه الى تمييز ثقافة وحضارة ازاء ثقافة وحضارة اخرى، وذلك بواسطة منع الثقافة او الحضارة المميزة الدرجات والامتيازات القيمية من خلال استخدام الزيف التاريخي وفق اعتبارات ذاتية. الا ان الاستشراق بغض النظر عن منبعه يبقى كما يقول ادوارد سعيد "الاستشراق خطاب قوي". لذا نعود ثانية ونقول بأنه بواسطة ومن خلال الحوار تستطيع الثقافة والحضارة العربية والاسلامية مواجهة الادعاءات المغلوطة المختلفة، مقصودة كانت ام عفوية، كما ويمكنها الامر من طرح نفسها مستقبلاً على ساحة الثقافات العالمية مع امكانية احتمال سيادتها اذا استطاعت ليس فقط من استخدام العلوم التكنولوجية انما بالدرجة الاولى من استيعاب هذه العلوم والتوفق بينها وبين القيم والمبادىء والمعايير السلوكية المرافقة والمعتمدة على الاصالة. وهنا يجب التنويه على انه اذا كنا قد طلبنا من الغير عدم الحكم على ثقافتنا من خلال قيم ومعايير بعيدة عنا، فيجب كذلك ان نلتزم من طرفنا بالامتناع من الحكم الشامل والتعميم على الثقافة الغربية بدون اجراء الحوار معها.

ويطرح السؤال حول الآفاق المستقبلية لمثل هذا الحوار، وكيف يمكن له ان يتطور ويتقدم ليس فقط في البحث العلمي الاكاديمي انما من الناحية العملية التطبيقية المتمثلة بالممارسة اليومية ؟

ان احد الشروط الاساسية للحوار هو التكافؤ بين الثقافات والحضارات المتحاورة، بمعنى الاعتماد على حوار الاكفاء والانداد. ان مثل هذه الندية تمنح المتحاور الامكانية من طرح تاريخ حضارته وحاضر ثقافته وتصوراته المستقبلية من باب التكافؤ في مدى مساهمتها في بناء الحضارة الانسانية بناء على التجربة التاريخية المتراكمة وما لديها من مقومات مستقبلية وما تحتويه من امكانيات مضمونية وقيمية هائلة من اجل استمرارها بأغناء الثقافات الاخرى، وفي نهاية المطاف المشاركة والمساهمة في بناء الحضارة الانسانية في الحاضر والمستقبل. ان عدم التكافؤ بين الثقافات المتحاورة يؤدي غالبا" الى اتخاذ موقع الدفاع من طرف المحاور صاحب الثقافة "الدنيا" عن حضارته وثقافته امام المتحاور الاخر صاحب الثقافة السائدة "العليا". كما ان الشرط الاخر لأمكانية اجراء الحوار مع الغير هو وجود الحوار الذاتي داخل الثقافة العربية نفسها ولضمان هذا الحوار الداخلي يتطلب الامر في الاساس النظر الى اهمية حرية "الفرد" الانسان واحترام هذه الحرية داخل المجتمع

العربي كمبدأ اساسي، بحيث تكون احدى المركبات الاساسية لهذا المبدأ هي اتاحة الفرصة للجميع في الحصول على امكانية التعلم وكسب المعلرفة اسوة بالاخرين، فالعلم والمعرفة هما الشرطين الاساسيين في الحوار (انظر، تصوكرمان، ١٩٩٧؛ Tokotli، ١٩٩١). كما أن لامكانية كسب المعرفة والعلوم لدى الجميع انعكاساتها على مستوى السياسة (Policy) التربوية والتعليمية المحددة لمكانة الفرد في تطبيق مبدأ الديمقراطية (الحرية والمساواة والمشاركة) في واقع عصر ما بعد الحداثة (ابيرام، ١٩٩٨). أن مبدأ حرية الفرد كفيلا" بطرح تبادل الآراء وطرح الأفكار بشكل حر. قد تختلف الاراء والافكار وهذا امر بديهي، بل امر صحي، الا ان وجوده مشروط بوجود ارضية اجتماعية وثقافية (مناخ مناسب) تسمح بطرح الاراء والافكار. نقوم بالتركيز على هذا المبدأ لأننا نرى اليوم ان حرية الانسان في عالمنا العربي والاسلامي عبارة عن سنة مهملة. نرى ذلك من خلال انتهاك حرمة الانسان عند رغبته أبداء رأيه في مجالات قد تعمل على عرقلة مخططات صاحب السيادة والنفوذ في نفس المجتمع. ان مستقبل الحوار في الداخل والخارج يحكم بمستوى تواجد وفعالية لمنظمات حقوق الانسان في العالم العربي اولاً، وفي مشاركة الافراد من العالم العربي في منظمات حقوق الانسان العالمية.

ان عدم التحرر على المستوى الفردي يكون حائلاً للتحرر الجماعي. كما ان عدم الحوار داخلياً يكون حائلاً امام الحوار خارجياً.

المصادر

- Cohen¨ stanley. "1982". " Western crime control models in thr Third world: Beign or Malignant?"¨ Research in low¨ Denance and Social control¨ 4¨ Pp: 85-119.
- Levi-Faur¨ David "1997". " Economic nationalism: From friedrich list to Robert Reich"¨ Review of International Studies¨ 23. Pp: 359-370.
- Loshitzky¨ Yosefa. "1996". "Travelling culture¨ Travelling Television". Screen 37 "4"¨ Pp 323-335.
- Newman¨ David¨ Paasi¨ Anssi. "1998". "Fences and neighbours in the postmodern world¨ Boundary narratives in political geography". Progress in Human Geogrphy 22 "2"¨ Pp 186-207.
- Tokatli¨ rachel. "1991". "Literacy and Democracy" In : Poggeler¨ F; Kalman¨ Y. "Eds.": Adult Education in Crisis situations. Jerusalem: The Hebrow University¨ Magnes¨ Pp: 193-200.